

الفصل الثالث

جوانب يعقوب صروف

١ - المعلم

ليس التعليم مهنة كما يزعم بعض الناس أو المسترزين وإنما هو هبة تعطى ، وإن شئت فقل إنه دعوة من الموجه الكلى القدرة بمنحها لمن أعطى ليقوم على تنفيذ النشر وتقوم عوجه . وتهذيبه على أقوم طريق وأصدق منهج المضى به إلى سبيل المعرفة الحقة .

وهو وإن تخلّى عن التدريس في مدرسة أو كلية أو جامعة فلم ينقطع عن التعليم في المدرسة الكبرى الجامعة . مدرسة الناس ، بنشر معارفه على غير واحد من طلاب العلم والمعرفة سواء منهم الكبير أو الصغير . العالم والأديب ، المفكر والمتأدب بوساطة مدرسته السبارة وإن شئت نقل جامعته المقتطف ، التي أنشأها مع زميله ورفيقه الدكتور فارس نمرثم انفراد هو يتعهد بها بفكره وعقله وقامه ، وقد كان لها الأثر الفعال عند الناطقين بالضاد وعند المستشرقين . وما أحرانا أن ننظر فيما نقله لنا ابن أخيه الدكتور فؤاد صروف قال : « إن الفرصة التي أتيت له لتدريس طائفة من فروع المعرفة مكنت له فيما بعد أن يتابع بعناية سير العلوم الحديثة وتطورها ، وإفراغ معانيها في المقتطف في بيان عربي يجمع بين وضوح المعنى وسلامة اللغة ، وقد كان حتى أواخر أيامه في العتد الثالث من هذا القرن يطلع على الحديد في عاوم الطبيعة والكيمياء والفلك والإحياء في واحدة أو أخرى من أمهات الجولات العلمية - مثل ناينشير - وينقل منها كل متخير إلى قرائه ولكنه كان يشكو في الحين بعد الحين من التعميد المطرد في فروعها متى حاول أن يستعمتها لكنه لم يكف عن إيراد الحديد مبسطاً سليماً »^(١)

(١) . يعقوب صروف : العلم والإنسان طبعة بيروت دار العلم للملايين ص ١٣ .

وما تقدم نرى أنه بدأ حياته العملية بالتدريس وأنهاها بالتدريس ولكن على نطاق واسع . فقد نقل إلى طلابه أكثر عبارة ذكره وما اتصل به من أبحاث العلماء والمفكرين والمفكرين . بلغة سلسة واضحة صادقة . ليس فيها ليس أوتيه قيد ولا تحتاج إلى تأويل . كل هذا نقله بصدق وأمانة لا يترورها تشويش أو تضليل أو تأويل بل صراحة ووضوح . وسرى فيما نحن مقارن عليه من تبيان جوانبه ما كان يرى إليه من الخير في تحرير العقول من السقاسف بكل تحفظ وبرهان صادق .

رأينا في مجلدات المقتطف أنه أفسح المجال للدكتور شبلي السبيل لأن ينشر بإيضاح برهن فلسفة ما شرحه بمنهج على فلسفة دارون ، وما كان رأى صروف بمناجاة الأرواح وغير ذلك من الأبحاث « الماورائية » . ولا نعدو الحقيقة إن قلنا : إن الدكتور يعقوب صروف كان عقلاً واعياً وفكراً نيراً يقول ما يراه حقاً بدون مراوغة أو تزلف . وكل ما قاله عنه رجال الفكر والأدب والعلم شهادة عدل تنطق بنفسه وتعلن حقيقة الإنسانية^(١) .

وقبل أن أختم بجئي هذا لايسنى إلا أن أشير إلى ما قاله عنه تلميذه العلامة الكبير المرحوم - بر ضوط في مقال نشره في المقتطف^(٢) : « عرفت في مساي معلماً في برج صافيتا . وعرفته في فجر شبلي أستاذاً ومعلماً في الكاية الأمريكية ببيروت ثم في المقتطف . في تلك الكلية . وأخيراً عرفته في مصر في المقتطف أستاذاً ومعلماً ثم دكتوراً ومعلماً . فما زالت إذن منذ صيف سنة ١٨٦٩ إلى أن توفاه الله تلميذاً محبباً لهذا الأستاذ الخالد ما خلد علمه وأدبه ونفسه » . ويعترف بعد هذه المقدمة إلى تبيان ما كان عنده من إخلاص لتلامذته وحب لعمله وشغف بالعلم ؛ وهو حلية الأستاذ الصالح والعالم الموهوب .

(١) راجع الكتاب المذكور في تأييد يعقوب صروف .

(٢) المقتطف المجلد ٧٢ من ٢٨٨ .

٢ - الأديب

ليس الأديب الذى يعتمد الصناعة قصداً بأديب . يغوص وراء المفردات والمتراجمات فيمنح لك مقالاً حشو التدبيح والترصيع والتورية واكتناية والتشبيه ، ما عدا الاستعارات التى يظن أنها تمنح مقاله روعة وجلالا . وترفع به إلى عالم النعصاحة ونشدته إلى حى البلاغة . فتقرؤ وتقرؤ وتخرج منه فارغ الرطاب ، ومثلك معه . مثل من يختص فنسار قصب ليتذوق منه درهم حلاوة ، وقول هذا لا يقدر به بعض كتاب القرن التاسع عشر فعصرهم غير عصرنا . ومذاهبهم العلمية كانت متأثرة ببعض رواهب عصر الانحطاط فلا سبيل إلى لوهمهم . وإنما اليوم على من يسلك مسلكهم من أدباء عصرنا الحاضر وهو عصر السرعة والتفكير لا التزويق والتتميق .

والأديب الحق عندى هو الذى يقدم لك بحسن بيانه وصفاء لغته فكراً وعلماً ومعرفة . والمطلع على مجلدات المتنطف الحافلة بالأبحاث القيمة والترجمات الموفقة . والأفكار الناصعة لا يسعه إلا أن يغنى الهام أمام مترجمنا ويصدق الحق فيقول : إنه كان من أولئك الكتبة والمفكرين الأفذاذ الذين يتحرون الجسد فيما يكتبون ويعلمون ويتخبرون الانداز التى تليق بالفكر الذى يرغبون فى إبدائه وطرحه على المجموع بدون تعمية أو تأويل بعيداً عن كل صناعة لفظية . وما ذلك إلا لأنه أديب راسخ القدم بالعلم يقول ما يعلم ويلتزم ما يفهم . وإذا كان الأدب ممنوعاً بالخلط والضلالة فقصد العلماء هو خير ما يرام له وهو طيب الذى يأتيه من غير داره إذا كانت داره مقفرة من دوائه ^(١) . ولا ريب أن الأدب كان طبعاً فيه وقد أخذته عن جملة العلماء فى ذلك العصر كالشيخ ناصيف البازجى والعلامة كارنيلوس فاندليك ، وقام على تنمية ما أخذ لغة وأدباً يوم انتدب لتعليم البيان فى الكلية الإنجليزية السورية . ومن الذكريات التى لا أنساها ،

(١) من مقال نوح بن محمود اعقاد فى الترجمة - المتنطف الجلد ٧٢ من ٣٣ .

أنى كنت فى السنة ١٩٣٦ أطلع فى مكتبة الجامعة الأمريكية لأعد تقريراً
فرض على . وكان المرحوم الأستاذ جرجس الحورى المقدسى جالساً إلى مكتبه
- فى المكتبة الإسلامية - منصرفاً إلى عمله فأتيته مستأذناً ومستوضحاً عن بنى
المفروض على كتابته فأرشدنى إلى مجلد من مجلدات المتكطف بالإضافة إلى
الخلال والمشرق . وبالمناسبة أخبرنى أن من أترجم له « يعقوب صروف »
كان يروى لكثير من الشعراء جاهليين وإسلاميين وكان يكثر من مطالعة الأغاني
وغيره . ولذلك استقامت لغته ووضح بيانه ^(١) . ومن كان هذا ديدنه فلا عجب
أن يكون فى مقدمة الأدباء . ويقتص علينا العتاد فى مقالته المشار إليه ما يأتى :
« فحفظ شعراً كثيراً كان يضعه أحسن الوضع فى أماكن الاستشهاد من
مقالاته الوصفية ونظم شعراً كأجمل ما نظم العلماء فى الحكمة وسرا وجود » ^(٢) .

وعلى ما تقدم أقول : إن « يعقوب صروف » عرف سر الكلمة فقتصها
وجعلها للؤلؤة فى عقد التجدد الذى أظهره بكل ما كتب وديح يراعه بدون أن
يدعو إليه . بل جعله فى مقتطفه مرآة تظهر الحسن فتيبه الأديب والمتأدب
والمتعلم والعالم فيأخذونه بدون أن يشعروا ويستندوا سته بالجمال ما رأوا . والجمال
محبوب ومطلوب أينما وقع . ولا ريب أن الأديب المنصرف إلى أدبه وعلمه
يفتخر ما عنده ويستعز الحكم عليه من بطالونه . وإليك رأياً وجيهاً لعلامة المؤرخ
المرحوم عيسى إسكندر المعافى بصروف قال : « ولكنه مع كل تفرعات
مباحته وتوسعه فى فون الصحافة التى خصت بها الخبيلات الكبيرة ووقوفه
على ما يكتبه أبواب الخبيلات الأجنبية الكبرى ومكتابوها قد أتى نفسه حصه
وافية من تحليل الألفاظ وفقه اللغة والأوضاع وإرجاع الكلمات إلى أصابها
وإصابة الرأى بمعرفته مطاها فإدع فى ما أنشأ أو ما انتار من الكتابات والمعربات
إلى غير ذلك مما لا محل لتفصيله الآن فترك الحكم فيه لمطالعى المتكطف ولما هم

(١) من وأستاذ جرجس

(٢) المقادير ١٢ من ٣٣ .

من العلماء الأعلام والأدباء العظام ، (١) .
إني هنا ينحط المصنف بأدب صروف لتنتقل إني جانب آخر وهو :

٣ - المجدد في اللغة

إن كل من اطلع على أدب عصر الانحطاط . وقد حفظت لنا انجماع الأدبية والرسائل الديوانية الشيء الكثير منه : يعلم أن اللغة العربية قد منيت بالضعف والركاكة ولا سيما في العصر التركي . وأصبحت أقرب إلى العامية منها بالنصحي ، فيها الرطافة والابتذال كما نرى في الوثائق والصكوك التي كانت تكتب بالعربية أيام المغول والمماليك والعثمانيين ؛ وفي عهد أولئك انحط الأدب العربي إلى أسفل الدرجات وذلك لشروع التركية في المخاطبات والمراسيم والديراوين . وتساط الحمول على العقول . والتقليد على المعاني ، والصناعة المقيتة على الأساليب . ولكي نبين ما ألعنا إليه نرى إزاءنا أن نقدم نموذجاً هو (٢) ، قلوة الأماجد الكرام متسلم الشام حلاً أحمد بك . بعد التحية والسلام بمزيد العز ولا كرام المنوى إليكم أنه نهار السبت الواقع في ٩ صفر سنة ١٢٤٨ الساعة بالسبعة من النهار كان ابتداء وصول عساكر المنصورة التي سافته ركابنا ببجيرة حمص وبتلك الساعة نظرنا قدوم عساكر خيل الترك المحتشدين لمعونة الباشاوات

نما تقدم نلمح انحطاط اللغة وركاكة الألفاظ وعلى هذا النمط مشى غير واحد من كتبة ذلك العصر ولم تكن اللغة مصبونة نوعاً إلا في ديوان الأمير بشير الشهابي الكبير . فقد جمع ديوانه أمثال بطارس كرامة وناصيف اليازجي ونقولا الترك وغيرهم .

(١) المقتطف ج ١ المجلد ٧٣ ص ١٨٨ .

(٢) مذكرات تاريخية بقلم أحد كتاب الحكومة المشقيين نشره الخوري قسطنطين الباشا

المطبع مطبعة الدواشير - حريصا لبنان سنة ١٩٢٦ ص ٦٤ .

وعرفنا مما ألعنا إليه في الأبحاث السابقة أن المدارس والجرائد والمجلات والمطابع انتشرت في عصر النهضة إلا أن الرطانة بقيت تسود بعض ما كان يكتب في ذلك الحين فجرد الشيخ إبراهيم اليازجي قلمه لتسديد أقلام الكتاب كما نرى ذلك في كتابه ^(١) « لغة الجرائد » ووضع هو وفارس الشدياق وإبراهيم الحوراني بعض مسميات عربية لبضع كلمات أعجمية ، ولما أنشئ « المتخطف » تجرد صاحبه الدكتور صروف لوضع كلمات عربية لمسميات علمية . إنجليزية وفرنسية كالأحافير وعلم النفس والمثل الأعلى ومناجاة الأرواح وتنازع البقاء والتعضية وما إلى ذلك ^(٢) .

وإن نحن قابلنا بين ما كان يكتبه الكتبة منذ خمسين سنة وبين ما كتبه مترجمنا رأينا أثر ذلك التجديد ونهوض باللغة إلى المستوى الذي كانت عليه قبل عصر الانحطاط . فكان يتناول صلب الموضوع بدون مقدمات بأسلوب حديث لا يتخير غير الألفاظ السهلة القريبة من الفهم ، فلا يحتاج القارئ إلى أن ينقب عنها بالمعاجم ليدرك معناها ^(٣) .

ولا نكران بأن الفضل يرجع إليه في تسهيل الأبحاث العلمية مع المحافظة على قواعد اللغة . وعلى غرارته مشى غير واحد من كتابنا العصريين ، وإليك ما قال الأديب الكبير الأستاذ المرحوم مصطفى صادق الرافعي : « انتهى شيخنا (صروف) في العهد الأخير إلى أن صار يعد وحده حجة اللغة العربية في دهر من دهورها العاتية . لا في الأصول والأقيسة والشواذ وما يكون من جهة الخطأ والضبط والإتقان بل فيما هو أبعد من ذلك وأردّ بالمنفعة على اللغة وتاريخها وأثرها بل في ما لا تنتهي إليه مطمعة أحد من علمائها وكتابها وأدبائها ، إذ وقع الإجماع على أنه انفرد في إقامة الدليل العلمي على سعة العربية وتصرفها وحسن التبادها وكتابتها . وأنها توفى كل ذي فن على فنه ، وتمادى كل عصر بما دونه وأنها من

(١) راجع كتابنا « ألغاز الفكر العربي » : الشيخ إبراهيم اليازجي . طبعته دار الفكر .

(٢) انظر في مجلدات نقشت في ١٩٢٤ من ٧٢ إلى ١٤٩ وفي كتاب « المتخطف » .

(٣) راجع المتعارفات .

دقة التركيب وديارته مع تمام الآلات والأدوات بحيث ينزل منها رجل واحد
 بجهده وعمله منزلة الجماعات الكثيرة في اللغات الأخرى كأنها آخر ما انتهت
 إليه الحضارة قبل أن تبدأ الحضارة^(١). وعلى الجملة فإن اللغة في رأى بصروف
 «سم حى نام» وشأن من يحاول منعها من الانحلال شأن الصينيين الذين يربطون
 أقدام بناتهم لكي لا تنسوي رتبان حدهما الطبيعي ، ولكن إذا كان النحو مشوهاً
 فلا بد من تقييده وتهذيبه .

٤ - العالم الفلكي

كان علم الفلك قديماً ضرباً من التنجيم وقد أشار إلى ذلك أبو تمام في
 قصيدته التي مدح بها المعتصم يوم فتح عمورية قال :
 والعلم في شهب الأرواح لامة
 بين الخميسين لا في السبعة الشهب
 أين الرواية بل أين النجوم وما
 صاغوه من زخرف منها ون كذب ؟

وصيروا الأبرج العليا مرتبة
 ما كان منقلباً أو غير منقلب
 يقضون بالأمر عنها وهي غافلة
 ما دار في فلك منها وفي قطب

ولم يستقم علماً قائماً بنفسه ، منزهاً عن كشف البخت والتنجيم إلا مع
 قلة من العلماء أمثال «تيخو براهي» وإسحاق نيوتن مكتشف أسرار الجاذبية

بين الأجرام السماوية ومع إنشائين الذى قال : إن السرعة بالدوران هى التى تحفظ الأجسام فى الأجواء ، وغيرهم من جلة علماء الفلك . ولا يخفى « أن هذا العلم هو أعوص العلوم لأنه مبنى على أدق القوانين الرياضية والطبيعية » (١) ، فجاء مترجمنا وجمع ما كان ينشره فى مقتطفه من مقالات وأبحاث فى هذا العلم فتقحها وأضاف إليها فصولا جديدة فى وصف البروج الاثنى عشر حسب شهور السنة ، وقد أطلق عليها علماء الفلك أسماء مختلفة ، وهى مجموعة فى بيتين من الشعر هما :

حمل	الثور	جوزة	السرطان
ورعى	الايث	سنبل	الميزان
ورمى	العقرب	بقوس	بلجدى
فاستقى	الدلو	حوت	بأمان

كما أن الشيخ ناصف اليازجى جمع أسماء السيارات التى تدور حول الشمس كما كانت معروفة فى زمنه بحسب ترتيبها الأبعد إلى الأقرب قال :

تلك	الدرارى	زحل	فالمشتري
وبعده	مريخها	فى	الأثر
شمس	فزهرة	عطارد	قمر
وكلها	سائرة	على	قدر

وجمع أبراج السماء بقوله :

من البروج فى السماء	الحمل	تنزل فيه الشمس	إذ تعادل
والثور	والجوزاء	نعم المنزلة	وسرطان
			أسد
			وسنبله

(١) بدائى علم الفلك تأليف الدكتور يعقوب صروف مطبعة المقتطف والمقطم بمصر ص ١ .

كذلك الميزان ثم العقرب

قوس و جدى دلو حوت يشرب^(١)

وزى مترجمنا في كتابه « بسائط علم الفلك » قد أثبت في آخر الكتاب مبعجماً يبين فيه كل ما عثر عليه من أسماء النجوم وأسماء صورها بالعربية وما يقابلها بالفرنسية، ولا ريب أنه كان رحمه الله واحداً من أولئك الذين أولعوا بالعلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والأبحاث الفاسفية، درسها ودرّسها حتى أصبحت جزءاً من سياته تجرى مع كريات دمه، فانقادت له انقياد الطفل إلى أمه، فما كان يرى فيها شيئاً من الصعوبة، وبذلك يقول الأستاذ منصور جرداق^(٢) : « اتصف الدكتور صروف منذ صغره بسمو المواهب العقلية فقد كانت لديه دروس الرياضيات الابتدائية والطبيعات كالحساب والجبر والهندسة والمثلثات والكيمياء والفلسفة الطبيعية وعلم الفلك بمثابة قراءة القصص التاريخية والفكاهية، ومساثلها وقصاها بما بمنزلة الأوليات، فلم يكن يجهد نفسه بدرسها وهو طالب (تلميذ) إلا قليلاً لأنها كانت سهلة عليه واضحة وجلية في ذهنه بينما كان غيره من أبناء صفه يتعب كثيراً في درسها ويصرف معظم وقته في تحضيرها والاستعداد لها »^(٣). والناظر في كتاب بسائط علم الفلك يرى أنه عرض إلى الآراء القديمة فأوضحها على علانها ثم انصرف إلى تسهيلها وأوضح الآراء الجديدة في الفلك مبيناً حركات الشمس والسيارات ونسبة بعضها إلى البعض الآخر، وتحدث عن ناموس الجاذبية وسعة الكون وأبعاده وفي ذلك الفصل يقول : « لم يكتشف العلماء حتى الآن حقيقة هذه الجاذبية ولا فرضوا لتعليلها فرضاً ينطبق على كل أفعالها »^(٤)؛ ومنها انتقل إلى سبب الكسوف والخسوف وتناول الشمس والقمر والسيارات وذوات الأذنان التابعة للنظام

(١) مجمع البحرين المقامة الفلكية طبعة دار صادر ودار بيروت ص ١٧٠ .

(٢) منصور جرداق أستاذ الرياضيات وعلم الفلك في الجامعة الأميركية في بيروت سابقاً توفي

سنة ١٩٦٢ .

(٣) المقتطف المجلد ٧٢ ص ٤١٧ .

(٤) بسائط علم الفلك ص ٢١ .

الشمسى ثم انتقل إلى النجوم الثابت وبعض ملابتها المتجمعة منها والمتفرقة ولم يغفل السديم فعرض عرضاً علمياً واضحاً وبين آراء العلماء في تكون أجرام السماء، بلغة صافية سهلة لا يعثرها تعقيد؛ فقارئ الكتاب يلم بإمالة صحيحة بعلم الفلك تمكنه من معرفة ماورد في الشعر العربي ولا سيما عند أبي العلاء المعري من ذكر النجوم والأبراج ووقائعها ، ويتفهم ما ينشره العلماء من أبحاث في الحاضر ، ويقول : فقد مهد طريق المعرفة إلى غير واحد من مطالعيه .

٥ - المترجم

إن أصعب ما يبنى به الكاتب والباحث من إرهاب هو فن الترجمة الصحيحة ، فهي تستدعي الأمانة في نقل الفكر بدون زيادة أو نقصان ، والمتجرد لها يحتاج قبل كل شيء إلى موهبة عقلية وفكر نير وسعة في الاطلاع وإتقان لفنه ، واللغة التي يترجم منها . ولا يستقيم ذلك إلا لمن أرقى علماً ومعرفة وجلداً^(١) .

ولا ريب أن التأليف أسهل من الترجمة؛ ولماذا ؟ لأن الترجمة تحتاج إلى دقة في الفهم . ولا سيما التعابير اللغوية والعلمية . ولا يخفى أن لكل لغة أسلوباً واصطلاحات خاصة ، تصعب ترجمتها حرفياً . فعلى المترجم أن يأني بما يماثلها في لغته وخصوصاً الأمثال . ويضعها في المكان اللائق بها بحيث لا يند المعنى عن ذهن القارئ ، ولذلك قال صروف : « اللغة جسم حي نام . وشأن من يحاول منعها من النمو شأن الصينيين الذين يربطون أقدام بناتهم لكي لا تنمو وتبلغ حدها الطبيعي ، ولكن إذا كان النمو شديداً فلا بد من تقييده وتهذيبه »^(٢) . ثم ينصرف إلى إبداء رأيه في الترجمة في أربعة قواعد وهذا ماخصها :

(١) راجع المختارات .

(٢) المختطف ج ١ مجلد ٧٠ ص ٤٨١ .

القاعدة الأولى : الكلمات الأعجمية تترجم بما يرادفها في العربية ويؤدى المعنى ، وإن لم يكن لها مرادف وكانت من الكلمات العلمية تبقى على لفظها . فهو يستعمل كلمة « روماتيزم » عوض داء المفاصل الذى يصيب اليدين والرجلين ، وقبلما يخطر على بال غير الأطباء ، أنه يصيب الظهر ، فإذا كان المقصود إصابة الظهر فضل كلمة « روماتيزم » . و « زلك » بدل توتيا مراعيًا بذلك كله مقامات الكلام من التخصيص والتعميم وما يوقعه من فهم السامع والقارى .

القاعدة الثانية : الكلمة التى لا يعرف لها معنى مرادفًا فى العربية ويرجح أن لها معنى بحث عنها فى مظانها مثل كلمة Mercenaries فيرادفها المسترزقة أى الجحود الذين يستأجرون ومثل كلمة Tributary فيرادفها كلمة ناصر والجمع نواصر : أى النهر الصغير الذى يصب فى نهر كبير، ومن قوله : « إذا وجدنا أن اللفظ الأعجمى أو العامى الذى ليس عربياً كثير الشوع واستعمال غيره يضيع الفائدة على القراء اضطررنا أن نعدل عن اللفظ العربى الفصيح إلى اللفظ الأعجمى أو العامى » .

القاعدة الثالثة : الأعلام الأعجمية الشائعة الاستعمال يبتئها على استعمالها سواء كان قديماً مثل إبراهيم ويوسف أو حديثاً مثل ألمانيا وأمريكا وفرنسى ووليم وهنرى . والأعلام التى لم تشع على الألسنة يكتبها على لفظها عند أهلها ، أو بأقرب ما يكون إلى لفظها الأصلى مثل « دارون » و « بيكسغيلد » و « كرومر » و « هارفى » و « روزفلت » .

القاعدة الرابعة : النكرات التى ليس لها مرادف فى العربية إذا عربها الكتاب وشاعت فإنه يجاريهم ولا يحاول وضع ألفاظ أخرى لها ، وقد تابع أساتذة الجامعة الأمريكية فى بيروت ، بتعريب الأكسجين والهيدروجين والنيتروجين والفسفور إلخ كما أنه جاراهم فى استعمال « مغنط » فعلا من المغنطيس و « كهترَب » من الكهرباء و « ترفن » فعلا يراد به كسر جانب من

عظم الجمجمة بعملية جراحية، كما أنه أبقي كلمة «تلفون» على لفظها لشيوعها بين أصحاب المصالح، وينصرف إلى القول: «هذا من حيث الألفاظ الأعجمية أما المعاني فإما أن تكون حقيقة أو مجازاً، وكل منهما إما مألوف عند العرب وخلفائهم، وإما غير مألوف؛ فهذه أربعة أنواع من المعاني المختلفة، الأول الحقيقي المألوف مثل ركوب الفرس، وشرب الخمر، فالمعاني التي من هذا القبيل نترجمها بما يدل على معناها فنقول: شرب الشاي وشرب الافسنت وشرب سر الملك أو نجبه واستخرج الراديوم واستقطر الفنون.

والثاني الحقيقي غير المألوف نترجمه بلفظه أو بما يقاربه كصوت له وأطلق المدفع فإن التصويت في الانتخاب معنى جديد لم يكن معروفاً على الصورة الحاضرة وكذلك إطلاق المدفع»^(١)، على أنه يبذل جهده في استعمال ما هو عربي صميم إن وجده في مظانه وإلا عدل إلى استعمال المألوف والمفهوم.

وعلى الحملة فإن الترجمة ليست بالأمر الهين فهي أصعب من التأليف كما قدمنا، لأن المترجم أسير معاني غيره مقيد بها مضطر إلى إيرادها كما هي على علانها بصدق وأمانة وإخلاص؛ ومن تصدى لها وهو غير ضليع من اللغتين لغة واللغة التي يترجم منها كبا به جواده وباء بالخسران. وقد صدق من قال:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده

ولا الصبابة إلا من يعانيتها

إلى هنا يحط بنا المطاف بعلامتنا الكبير يعقوب صروف وهو بحق أبرز رجال النهضة العلمية الحديثة، فقد تناول كما رأينا الطبيعيات والكيمياء والفلسفة، والتاريخ، وقد كان من رجال التاريخ، فقد استقرى الحفريات ووصف عادياتها واقتبس أخبارها من مصادرها الأصلية وإننا لنستطيع أن نستخرج من مجلدات المقتطف كتباً قيمة في علم الآثار ولا سيما الآثار الفرعونية،

ولا يسنى بعد ما قدمت إلا أن أردد قول الشاعر :
هذه آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

٦ - الشاعر

إن لبنان بطبيعته قصيدة قوافيها تلك الروابي والآكام، وابن لبنان بسليقته
يحسّ الجمال ويتبينه بجباله وتنوّع مناظره ، فحيث انجذبت رأيت منظرًا حسنًا
لاتقع العين على مثله :

تجبرّ الحسن في رباه وبا ت الحسن فيه مجبرّ الأنحاء
ولا عجب أن رأينا ابن لبنان يتعشق الشعر ويسعى إليه بقلب نابض وعين
وقادة وروح شفاقة ، تطرب لسقسقة الماء وحفيف الأوراق وهدير النبع
المتدفق النابط من قلب الأرض بنغمة موسيقىة ولحن ناعم ، حنون حيناً
وصاحب حيناً آخر .

وقل أن ترى رجلاً في لبنان لا يروى الشعر، فهو إن لم يروه فصيحاً
نطق به عامياً ، ومن لا ينظمه فصيحاً نظمه عامياً كقول أحدهم في حسناء
صاحكة :

صَحَّكَتْ لِي بِنْتٌ سَمَّيْتُهَا جَوَارِحَ قَلْبِي بِهَمَّيْتُهَا
بَنَجْدَ لَهَا مِنْ عَضَائِي سَرِيرَ وَبَيْعَتِ رُوحِي تَهَزُّ لَهَا (١)

هذا قول الأُمِّي أو الراعي وهو وراء بقره أو ماعزه فكيف بقولك بمن كان
عنده مسكة من العلم والمعرفة . وقد عرفنا في ما أثبتناه أن « يعقوب صروف » قد
أسندت إليه « الكلية الإنجيلية السورية » وهي اليوم « الجامعة الأمريكية »
منصب تعليم البيان واللغة العربية ، ولا يخفى - كما قلنا - ما يحتاج إليه
أستاذ هذين الفرعين من بحث وتنقيب في مضامين الكتب الموثقة

(١) يقرأ باللهجة اللبنانية .

قبل إلقاء الدروس على الطلاب ، فكان ذلك سبيلاً له لأن يقف على أصح المذاهب اللغوية والنحوية والبيانية ليقدمها مائدة شبيهة لتلامذته ، وكفى أن تقول إن الأستاذ المرحوم « جبر ضوابط » كان من تلامذته . وكذلك الأستاذ الكبير أنيس الحورى المقدسى وغيرهما وهم كثير لا يسعنا تعدادهم فى هذه الدراسة . وإن نحن أردنا أن نبحث ما يبذله الأستاذ الجامعى من جهد فى مطالعة المجاميع الأدبية والدواوين الشعرية والكتب اللغوية ، عرفنا مبلغ ما يستوعبه ذلك الأستاذ من علوم اللغة وآدابها ، وإذ ذاك تقول إننا أمام رجل ثابت القدم فى اللغة والأدب واسع الاطلاع ، قد سبر غور اللغة فتخير ألفاظها المتناغمة مع أختها لينقل بها المعرفة إلى أدمغة الراغبين فيها ، الجادين فى إتقانها بصدق وأمانة لا يعتمورها تعقيداً أو تحذاق ، فقد صفت ديباجته ورقت ألفاظه ، واستقام بيانه ، بحيث لا ترى فى كل ما كتب ونظم ركافة أو معازلة ، فقد كان كلامه مطابقاً لمتنضى الحال مع فصاحته . وهنا لا بدّ لى من أن أقول كلمة فى الشعر وما صار إليه فى وقتنا الحاضر .

٧ - أدبنا المعاصر

إذا ألقيت نظرة على أدبنا المعاصر وشعرنا المبتور ، أخذتكم رجفة أسى على ما صار إليه أدبنا الذى أراد أن يقلد الغرب فى أوزانه فباء بالخسران ونسى أن لكل لغة مقوماتها وأساليها وبيانها ، والشعر العربى مميز فى موسيقاه ووزنه وصوره وأخيلته وكلها تتراوح بين الحقيقة والحجاز .

والشعر ما كان فى وقت من الأوقات كلمات مقطعة كقول أحدهم :

سأم	حياتى	وحبى	منهار
أسهر	ليلى	وأنام	النهار
من	أجلك	يا	حببتى

فما معنى هذا القول وما هو الجمال الذى يكتنفه والخيال المخلق والشعر المودوب ؟ أليس هذا هراء وقولاً لا معنى له .

زعم البعض أن الشعر موسيقى يتناول اللفظ دون المعنى ، ويكفى أن تكون الكلمة رشيقة خفيفة سواء أدت المعنى أم لم تؤده ، وعندهم أن جمال الصوت ونبراته والحرص بلبسها الحلة اللائقة بها ، وينزلها منزلة ما يسمونه شعراً ينكبون به الأدب ويسفون به إلى الابتدال ، وفاتهم أن الشعر وإن شارك الموسيقى فى بعض نواحيها ، فهو مقيد بالمعنى الذى يشارك فيه العقل لاستكمال اللذة ، والموسيقى فى بعض نواحيها ما كانت يوماً شعراً على إطلاق المعنى ولن تكون ، لأن الشعر مشارك لها باللحن والإطراب ، والموسيقى لا تشاركه بالمعنى ، وكم من أبيات تستوعبها لمعناها ومبناها وترقص لها طرباً . وأنت بعيد عن لحنها الموسيقى ، وذلك بين ظاهر لكل من أوتى سمعاً مرهفاً وذوقاً رفيعاً ، لأن لذة الموسيقى تتناول الأذن والنفوس معاً وهما يطربان باللحن الحسن والتوقيع المرقص ، فتسكر الروح وتنخطف إلى ملأ تحسه إحساساً روحياً ، لاتقدر أن تعبر عنه بكلمات ، فالموسيقى روح والروح لا تلمس باليد ولا يجرى عليها التصوير ، فجماها لحن وقعتها نفوس موهوبة أعطيت دبات تظهرها أصواتاً ، ويتعذر عليها أن تظهرها كلمات ، بعكس الشاعر الذى أعطى أن يجمع بين الصفتين اللحن والمعنى ، والشعر الحقيقى الخالد إن عرى عن صفة من هاتين الصفتين كان صوتاً يضمحل ويتبدد فى تموجات الهواء فلا يكتب له خلود ، كما فى قول بعضهم :

سرى على مهل يا نبضة الحب
خفق النعال ضحى كالحفق فى قلبى

قات إن الشعر يشارك الموسيقى لأنه لفظ يعذب فى الأذن سماعه ، وتطرب له النفوس . ويسوغ معناه العقل ، فهو غير مقتصر على اللحن حسب ، لأن المشاعر كلها تشترك باستساغته ، فتأخذ كل شاعرة ما يناسبها ، ومن مجموعها يقتوب صروف

يتذوق جمال القول واللعن ، فشاعرة العقل تتطلب المعنى ، وشاعرة السمع تتطلب
الجرس ، وشاعرة الحس تتطلب الكلمة اللينة البينة العذبة ، وهى تنفع فى النفس
موقع الحمرة الدابة فى الأعصاب فتخدرها . وتستوحى النفس نشوتها ،
وعمل اللحن فى الشعر كما يقول أبو الوليد بن رشد فى تلخيص كتاب أرسطو
هو : « أنه يعد النفس لقبول خيال الشئ الذى يقصد تخيله ، فكأن اللحن
هو الذى يفيد النفس الاستعداد الذى به يقبل التشبيه والمحاكاة للشئ المقصود
تشبيهه » .

وليس كل ما يرد على القرينة يجب أن يقال . فقد يكون الشاعر فى
خلوة يردد كلمات يطرب لها ويرى فيها جمالا أوحى به وحشة المكان ،
ولكن بعد أن يجرى تلك الكلمات على محك العقل يرى ألا معنى لها ، ولأمر ما
قيل لبشار بن برد : « بم فتت أهل عمرك وسبقت أدل عصرك فى حسن معانى
الشعر وتهذيب ألفاظه ؟ » قال : « لأننى لم أقبل كل ما تورده على قريحى
ويناجينى به طبعى وببسته فكرى » ، وكأنه عرف أن الصوت الواحد والمنظر
الواحد لا يؤثر فى السامعين والناظرين أثراً واحداً ، وليست الحواس وحدها
تكفى فى إدراك الجمال ، بل لا بد معها من العقل ، فالحواس وحدها تستطيع
أن تدرك الحركات والأشكال والأصوات والألوان على انفرادها ، ولكن لا بد
معها من الفكر والشعور ليربطا بعضها ببعض الآخر ويكونا مجموعة واحدة
متناسقة الأجزاء . وبهذا أيضاً يختلف الإنسان عن الحيوان . فالحيوان يستطيع
أن يدرك ألوان صورة ذات ألوان كصورة العذراء لرفائيل ويسمع الشعر ولكنه
لا يدرك ما يدل عليه ذلك من عشق ولا يشعر بما يمثل من عواطف .

وهذا ما يؤيد ما ذهبت إليه من أن الشعر ليكون شعراً حياً يجب أن يكون
فيه لجميع الشواعر الإنسانية مشاركة ، وقد تنبه إلى ذلك علماء الشعر فى العصر
العباسى فقال قدامة بن جعفر : « لما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع
على الأشياء المركبة من ضروب المعانى كان أحسنهم من أتى بشعره بأكثر
المعانى » .

ولقد أعطى الشاعر صفة لم تعط لغيره ، فهو الأمير المتصرف ببيانه والغائص على المعاني الجليلة ، وقديماً قال الخليل بن أحمد : « الشعراء أمراء الكلام يتصرفون فيه كيف شاءوا ، وجائز لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم من إطلان المعنى وتقييده » فأنت ترى أن الشاعر لم يطلق له الكلام إطلاقاً دون تقييد في المعنى وأن كلمة اللاوعى كلمة يفهمها البعض على غير حقيقته ، فهذه قصائد ابن الفارض إمام الرمزيين واللاوعى ، ألم يعطنا المطرب الجيد من الشعر ؟ أما كان يخطف متجرباً عن المادة في ما قالوا عنه ويعود إليها وملء فمه قصائد فيها كل جميل حسن سواء فيها نعت اللفظ أو نعت المعنى ، وإذا كان المراد من كلمة « اللاوعى » الهذيان فيكرن المحموم شاعراً وكل مجنون شاعراً ، ويا لحية الشعر عندئذ ويا لضبعة الأدب الحقيقي من أدب هذا العصر ! وإنه ليعجبني قول الجاحظ في كتابه البيان والتبيين : « المطبوعون على الشعر هم الذين تأتيم المعاني سهلاً ورهواً ، وتثايل عليهم الألفاظ أنثيالاً » ، ومن الأدباء من يقول وحجته أن الشاعر كالمصور الذى يقدم لك خطوطاً رمزية تترك الجمال ولا تدركه . قلت : إنهم على حق في ما يذهبون إليه ولكن هل الخطوط التى يرسمها المصور البارع خارجة عن حد أصول الفن المقررة ؟ أو تراه جردك من العقل بخطوطه وقصر فنه على ناحية نفسية واحدة ؟ ألم يصرفك بما رسم قلمه إلى تداعى صور رجعت بك التتهقرى إلى الماضى حيث يرتبط ما شاهدت قبلاً بما حضرك وأنت أمام لوحته .

وهذا الرمز الذى يطبل له البعض ويزمر ، أليس فيه معنى يدركه العقل ؟ أهو مجرد ألوان فقط ، وقديماً قال الإمام الماوردى : « وربما استعمل الرمز من الكلام في ما يراد تفخيمه من المعاني ، وتعظيمه من الألفاظ ، ليكون أحلى في القلوب موقعاً وأجل في النفوس موضعاً ، فيصير بالرمز سائراً في الصحف مخلداً » . وعندى أن الشعر الجيد هو الذى يخاطب العقل والنفس معاً ، ولا خير في شعر له نوبة تتناول النفس دون العقل ، والجيد الجيد هو الذى يجمع بين العقل والنفس . وجماع ذلك ما قاله قدامة : « أن يكون المعنى مواجهاً للغرض

المقصود غير عادل عن الأمر المطلوب » .

وجملة القول أن الشعر معنى ومبنى ، سواء منه الرمزي والغنائي المطلق والمقيد والمقتصر على صفة واحدة لا يتناول غيرها ، يبين فيه النقص ويخرج عن حد الكمال والمقرر . ويكون مثله مثل آثال عليه من الحلى والألبسة ما لا يستقيم مع الذوق والعقل ، ويبهرك الشكل وتفوتك الروح . والمادة بلا روح باطلة والروح وحدها لا تدركها المادة ولا تفهمها على وجهها الصحيح (ويسألونك عن الروح . قل الروح من أمر ربي) .

والشاعر الحق هو الذى يحسم الجهاد فينطقه كما فى قصيدة إسماعيل صبرى فى وصف الأهرام ومطلعها :

لا القوم قوى ولا الأعوان أعوانى إذا وفى يوم تحصيل العلى وإن

وكما فى قصيدة مطران ، فى ظل تمثال لرعمسيس الكبير ومطلعها :

يا صورة شبت صخرأ بإنسان ملأت من روعة قلبى وإنسانى^(١)

وعلى ما تقدم أقول : إن الشعر الحى هو الذى يرقصك ويطربك ويملا جوارحك وعقلك ، فسير وراء خياله . بتناغم الكلمات وجلال المعنى والمبنى . ويبقى فى إحساسك ما يرفع النفس إلى عالم الرؤى والأحلام . وبعد هذا كله تعال معى ننظر فى شعر مترجمنا ؛ فماذا نرى ؟

هل كان الدكتور صروف ذا شاعرية ؟

هذا ما سأله المرحوم الأستاذ حنا خباز^(٢) . وما هى ظاهرات شاعريته ؟

قال :

« أما أنا فأرى أن المقتطف نفسه كبرى تلك الظاهرات . على النحو الذى رأى " هيغل " شعرية الوجود ؛ فقد ذهب أبو الفلسفة الحديثة إلى أن نظام

(١) أى إنسان العين . ناظرها .

(٢) المقتطف المجلد ١٢ ص ٣٣ والمقتطف ج ١ ص ٧٢ ص ٤٣ .

الأفلاك الدوّارة وتلاؤم أجزائه وسعتها وترابطها ونواميسها شعريّة كونيّة يدركها المفكر الحصيف . وأرى في نظام المقتطف وتبويبه واتساقه وأدبه وبيانه وصيغته على هذا النحو شعريّة لها في نفوس قرائه رنّة المعلقات وقد تزيد .

ويروى لنا المرحوم مصطفى صادق الرافعي الأديب الكبير أنه اطلع على قصيدة « الرفاش » ^(١) التي ترجمها الدكتور صروف عن الإنجليزية في نسق سلس موشّح القوافي وفيها يقول :

مخازٍ توالّت فصالت وصارت على اللحم دوداً وفي العظم سوسنا

وسأله الدكتور بعد أن فرغ من قراءة القصيدة : « في أي طبقة تعدني من الشعراء ؟ » .

أجابه بعد تفكير قليل وإمعان النظر في القصيدة : « في طبقة الدكتور يعقوب صروف » .

وفي شاعرية مترجمنا يقول المرحوم العقّاد : « نظم شعراً كأجمل ما نظم العلماء في الحكمة وسرّ الوجود » .

فأمام هذه الشهادات القيّمة تعال معي نسر الهوينا بين جداول شعره نتين الشاعريّة فإننا ولا ريب نجدها في ما اخترت من شعره ، فقد رأيت مائدته شهية فانتقيت ما وقع عليه النظر القاصر ، ومن ذلك المتخير تتين الشاعرية فيه ، ولا عجب في ذلك فهو ابن لبنان ولبنان قصيدة الدهر وهو شعر ورواية قافية .

ونلمس في قوله شيئاً من التنبؤ :

وللتطور أحكام مقررّة والنفس والجسم في الأحكام سيان
لا بد للعلم من يوم يفوز بما يُبَيِّن الحق فيه خير تبيان

ونرى في زمننا هذا أن العلم سائر في طريقه إلى كشف الحقائق المحتجب وراء الآمته من هذا الكون العجيب الغريب، والعقل المولّد لحدّ يزل يعمل بتؤدة، ولا بد للعقل الإنساني المترن من أن يتبين الحقيقة يوماً فيعرف سر الكون وما فيه . ويعرف الإنسان نفسه . فيكفّ عن الحروب وسفك الدماء ، والتسلّك بالوهم .

ولا بد من يوم تتضح فيه الحقيقة الذي عينين، وهنالك ، أجل هنالك يقف المرء مستعرضاً الماضي ؛ فإما أن يقف مبسماً طروباً وإما أن يقف حزيباً كثيراً .

ولا يفتر ثغره عن بسمه إلا إذا كان على صواب ؛ ولا ترف العين إلا على دموع تذرف على دم بريء سفك في سبيل الجهل والوهم والكبرياء والعنجهية .

وعصرنا هذا هو عصر الذرة وفيه نرى العلم آخذاً بغزو الأجواء ؛ مستكشف متعرفاً إلى ما تاقت النفس إلى معرفته . ولا ريب أن للعلم ظفراً قريباً ، يصل به إلى معرفة الحقيقة الناصعة التي تريتنا أنفسنا عراة أمامها ، أفهى التي لا تتجزأ وقد جزأناها وذهبت بها كل مذهب ؛ وزعمنا أننا على صواب ؛ فطاح رؤوس وجرت دماء وتنافرت قلوب ، وكتبنا في سفر الحياة صفحات سوداء سيبيضها العلم الصحيح ولكن بدموع .

وأما وقد أشرفنا على دراسة الدكتور صروف وسيلنا منها أن تبث في قلوب روح محبة العلم وأعني بالعلم ليس الأدب واللغة حسب، بل العلم الطبيعي وسب غور الأرض لمعرفة ما فيها من الكنوز ، ثم الوثوب إلى النجوم والأكوان ، وقد شقّ الطريق وأن لأبناء الشرق ولا سيما العرب أن يستيقظوا من سباتهم الطويل ويشمّروا عن ساعد الجهد والنشاط ويطلبوا المعرفة والانغماس بالعلوم التي تؤدي إلى الاختراع والاستنباط والكشف عما في باطن الأرض من كنوز طبيعية كالنفط وغيره .

وقد رأينا في بحثنا هذا ما للعلم من فوائد ، فعسى أن تكون الأجيال العربية

المقبلة أجيالَ بحثٍ وتنقيبٍ وعملٍ ، لا أجيالَ استسلامٍ وتغنٍ بالماضى ورحم الله
ابن الوردى حيث قال :

لا نقل أصلى وفصلى أبداً
إنما أصل الفتى ما قد حصل

إن التغنى بأجماد الماضى والوقوف عندها ، لا تبني وطناً ولا تنشئ أمة ،
ولا تثبت قدماً .

إن العصر الحاضر والعصور المقبلة هى عصور عمل واستنباط ، واستكشاف ،
والدنيا لمن غلب .

واقتران العلم والشعر شىء جميل . وجميل جداً إذا تمكن المرء من أن يجمع
بينهما ، والانصراف إلى دراسة العلوم أنفع وأجدى ، وقولى هذا لا يقدر بالشعر
ونظميه فلكل إنسان موهبته ، عليه أن ينميها على ضوء ما يقدمه لنا العلماء
من نظرات صائبة وأقوال حكمية نافعة والله در من قال :

إذا كنت ذا رأى فكن فيه مقدماً
فإن فساد الرأى أن تترددا

ومن وضع يده على المحراث لا يلتفت إلى الوراء ، وها إن الشرق قد
وضع يده على المحراث فعليه أن يواصل العمل الصحيح المنتج فلا يلتفت إلى
الوراء ، وعليه أن يشق طريقه صعوداً إلى الأمام ، لينبئ على أنقاض الماضى
مجدداً أثيلاً مبنياً على الفكر المولّد النور والعلم المستنبط ما هو مجهول عندنا موجود
فى الطبيعة . وما يكتنفها باطناً وظاهراً ، وكل من سار على الدرب وصل ؛ وها هو ذا
الغرب يقدم لنا فى كل يوم شيئاً جديداً من المستنبطات العصرية فعلينا أن
نأخذ عنه لسان حالنا يقول :

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم
إن التشبه بالكرام فلاح

٨ - خاتمة

أما وقد أشرفنا على نهاية دراسة « يعقوب صروف » من كل نواحيه ، فبات علينا أن نقول رأينا بالرجل ونرى ما كان يرى إليه من وراء نشره المقالات الضافية ، علمية وأدبية . وضعاً وترجمة وتليخساً ، وما هي الغاية من سهره اللبالي الطوال في سبيل البحث والتنقيب عن قضية علمية ونظرية فكرية ؟ وما هي الخدمات التي أداها لأبناء الشرق عموماً سواء في ذلك العرب والأعاجم ؟ وما هو الأثر الذي تركه في نفوس قرائه ؟ وما هي النهضة التي بعثها في صفوف المتأدين والمنصبين على العلم ، وهذا كله يدعوننا إلى النظر في ما جمعنا وكتبنا لنخاض من ذلك كله إلى الإجابة عما سألناه .

إن من يعم النظر في دراستنا هذه لا بد له من أن يستصفي زبدة فكرية طيبة المذاق ، زكية الشذا ، تحمل طلائب العلم على الاقتداء به والسلوك في الطريق التي اختطتها لنفسه . ورائده الخدمة العامة ، وتحرير الفكر مما علق به من أدران عصر الانحطاط ، والتخلي عن كشف المغيبات بطريقة « كشف البخت وضرب الرمل ومناجاة الأرواح »^(١) والاستسلام إلى أساطير حاكها الخرافة وتبناها الوهم . وهذه كلها كادت تكون حقائق عند غير واحد من أبناء ذلك الزمن لولم يرق رجال أفاضل مخلصون ذوو فكرٍ نيرٍ وخيالٍ مجتجٍ ونظر صائب وجاد على البحث المنطقي والتنقيب المتواصل في عصر تفتّح الذهن ، عصر النهضة ، فأجلوا الحقائق ونسفوا جسور الوهم ، وقد كانوا بحمد الله كثيراً في مصر ولبنان وسورية والعراق وبعض الأقطار العربية . قد خدموا أبناء جلدتهم بما نشروا من مقالات ونظموا من قصائد بعثت في الصدور نفحة قدسية ، أهابت بأبناء الجيل إلى الدرس المتابع ، والبحث العلمي المنظم ، فكانت

لنا هذه النهضة العربية المباركة التي مازالت في سيرها تجدد وتعمل ، وتسعى للوصول إلى الهدف الأسمى ، نابذين ثوب الكسل الذي تردوا به زمناً ، وليس الذنب ذنبهم ، وإنما كان ذنب السلاطين والملوك الذين تسلطوا على هذا الشرق ؛ فنشروا الظلام والجهل والنموضي والخنوع في طول البلاد وعرضها من المحيط إلى الخليج . فعش الوهم والخرافة في عقول كثير من أبنائه .

وما كاد يسطع نور الغرب في ظلمة الشرق حتى رأينا المدارس تعج بطلاب العلم ترشفت أطايب المعرفة وتستوعب ماتقدمه المطابع من كتب ومجلات وجرائد ، ليس باللغة العربية حسب ، بل بلغات الأجانب ولا سيما الفرنسية والإنجليزية والألمانية والروسية والأسبانية والإيطالية ، إلى غير ذلك من لغات الأمم ، فأثرت في العقول وحررت بعضها . وقضت على كثير من الأساطير ، وأخذ نقاب الجهل يتزاح شيئاً فشيئاً .

وهنا يحط بنا المطاف للنظر بقيمة أبحاث « صروف » العملية التي نشرها في مجلدات مقتطفه ، وقد اخترنا منها ما تيسر لنا من المختارات التي يراها القارئ في آخر هذه الدراسة .

ولا ريب أن الغاية التي رمى إليها مترجمنا في أبحاثه العلمية هي القضاء على ما خلفه عصر الانحطاط ولا سيما العصر العثماني من الجهل المدقع في المجتمع العربي جملة . والخرافات التي تشبث بها المشعوذون وراحوا ينشرونها بين السواد الأعظم من أبناء العروبة . حتى صارت عند البعض حقائق تصعب إزالتها ، كالكتابة السحرية وغيرها . وإن نحن ألقينا نظرة تاريخية على ذلك العصر رأينا التخلف عن ركب الحضارة الغربية التي أخذت بكل ما عندها من قوة تبحث في نهضتها العلمية في سائر فروع العلم والمخترعات والمكتشفات ، ونحن عنها غافلون ، وما أحرانا أن نأخذ بقول المرحوم إسماعيل مظهر ، صاحب مجلة العصور ، « بيعقوب صروف » قال : « كانت غايته تلقيح الأفكار القديمة بأفكار جديدة ، وتغيير الأساليب القديمة بأساليب جديدة . وقتل العادات العتيقة التي نكب بها الفكر بعادات تلائم مقتضى الزمان والمكان . وذلك عن طريق تفهيم الجديد

من المبتكرات العلمية والفنية والعملية ونقلها بالترجمة إلى عالم يجهلها»^(١) ، فيؤخذ من قوله هذا أن مترجمنا كان يعلم علم اليقين أن الشرق لا يقدر أن يلحق بركب الحضارة الغربية إلا عن طريق ترجمة العلوم الطبيعية إلى اللغة العربية وتسهيلها ما أمكن لتكون بمثابة الخواصة والعامة من أبناء هذا الشرق العربي. وإن نحن أجبنا الطرف ببسائط علم الفلك رأيناه يحمل نظرية « بطليموس » قبل أن يأخذ بنشر نظرية « كوبرنيكوس » وقد برهن على بطلان نظرية « بطليموس »^(٢) . والناظر في كتاب « أعلام المقتطف » يلمس الناحية التي أرادها ، وهي بثّ محبة العلم في أفتدة أبناء الجيل والانصراف إلى الأبحاث العلمية والكشف عن الحقائق التي مازالت في ضمير الطبيعة . ولا نكران على أن العرب في عصورهم الذهبية أيام الدولة العباسية كانت لهم علوم واكتشافات علمية ، في حين كانت أوروبا تغط في جهلها وذلك بشهادة أحد علماءهم الأعلام جورج سارتر G. Sartar وهو من أكابر مؤرخي العلوم قال : « إن العالم مدين للعرب بأنهم حافظوا على التراث اليوناني أولاً ، وبما أضافوه عليه من مبتكرات عملية ونظرية ثانياً ، وبنقلهم هذا العلم مع تلك الزيادات المبتكرة إلى الغرب ثالثاً . . . أما اللغة العربية فكانت دون جدال لغة العلم والفلسفة والتجارة من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر ، وحفظت هذه اللغة تراث العالم العلمي . وحافظت عليه ونقلته حتى الصين شرقاً وحتى الأندلس غرباً »^(٣) . وكذلك قال المستشرق الفرنسي « عمانوئيل سيديو » : « إن الكنوز الأدبية العلمية التي أوجدها العرب في ذلك العصر ، ونتاج نبوغهم العلمي ، واختراعاتهم الثمينة ، تنهض دليلاً على نشاطهم الفكري . وتؤيد الرأي أن العرب هم أساتذتنا في كل شيء إذ أنهم زودونا بمواد جليلة القيمة في تاريخ العصور الوسطى ، وبأسفار مجيدة في التراجم ، وتركوا لنا صناعة لا مثيل لها ، وفناً معمارياً في غاية الروعة

(١) المقتطف عدد أبريل سنة ١٩٣٨ ص ٤٢٢ .

(٢) نظر المختارات .

(٣) الدكتور نبيه أمين فارس في مجلة « العلوم » كانون الثاني سنة ١٩٥٧ ص ٢٨ و ٢٩ .

والجمال، واكتشافات هامة في الفنون والصناعات»^(١)؛ وعلى ما كان للعرب من تراث علمي رغب «صروف» في إحياء ذلك المجد العلمي التليد وتسليمه إلى الأحناد أمانة، وإيقاظهم من سباتهم الذي طال، وطال حتى كاد يقتضى على الهمم ويميت العزائم فبعث في القلوب النشاط، وأثار مصباح العلم بما نشر في مجلدات «المقتطف» من الأبحاث القيمة، فكان المعلم الأوحى المتجول يبتث المعرفة في كل مكان نطق أهله بالاضاد؛ والناظر في صفحات «المقتطف» يجد أن مترجمنا قد عمد إلى نقد النظريات العلمية وشارك أساطين العلم في أنجاسهم، وقد عرضنا إلى ذلك في دراستنا هذه وأبنا جملة صالحة من اعتقاده، بأن البحث العلمي المركز يبين الحقيقة ناصعة بطريق المنطق والاختبار، فأبحاثه في السحر والتنويم المغناطيسي ومناجاة الأرواح^(٢) ومذهب النشوء والارتقاء، كلها أسفرت عن آراء مصيبة ولا سيما «مذهب النشوء والارتقاء». وكان أكبر الآخذين به والمدافعين عنه في مصر الدكتور شبلي الشميل وسانده بآرائه مترجمنا وأفسح له صفحات مقتطفه. فتدامت حركة صحفية قوية بين أدباء العرب وتصدى لهذا المذهب والرد عليه «الأب لويس شيخو اليسوعي» في مجلة «المشرق» وكذلك العلامة جمال الدين الأفغاني وغيرهما، وما زال «صروف» والشميل على رأيهما لم يجيدا عنه ألبتة حتى يقتنعا بفساده، على أن «صروفا» لم يكن يتشبث برأيه عندما تظهر له الحقيقة. ومن أقواله: «المناظر والنظير مشتقان من أصل واحد فمناظرك نظيرك، أما الغرض من المناظرة فهو التوصل إلى الحقائق؛ فإذا كان كاشف أغلاط غيره عظيما كان المعترف بأغلاطه أعظم». ونلاحظ في مجمل كتاباته أنه لم يدع المعرفة بل بالعكس كان متواضعا معترفا بالخطأ عند بيانه آخذا برأى الخصم شاكرآ له، وكان إذا ما أخذ برأى علمي يسنده إلى صاحبه عملا بالأمانة العلمية، غير مدعيه لنفسه شأن غير واحد من أبناء هذا الجيل الذين يسرقون آراء الغير ويدعونها لأنفسهم.

(١) مختصر تاريخ العرب والمتمدن الإسلامي لسيد أمير على ص ٣٩٥.

(٢) راجع المختارات.

قد يسأل سائل ، أكان « صروف » عالماً بعلم لا يتعداه إلى غيره أو كان مشاركاً بكل العلوم الرياضية والطبيعية ؟ والإجابة عن ذلك لا بد لنا من الرجوع إلى عصره ، فنرى أن الأدباء والعلماء كانوا أندر من النادر ، فالعالم في ذلك العصر كان ممن يعرف الصرف والنحو والبيان والمنطق ومشاركة في الأدب والتاريخ والجغرافية ونزر ضئيل من الحساب ، ولما اتصل الشرق بالغرب بدأ النور في ذلك العصر ضعيفاً ؛ فكان من الواجب على المتعلم والمتأدب أن يلم بجميع أنواع المعرفة ولا سيما بما كان يأتينا به الغرب من آراء ومكتشفات ونظريات علمية ، فبات من العدل ألا ينصرف « يعقوب صروف » إلى فرع واحد من العلوم ، بل أثر أن يخوض بحر العلوم المختلفة بجهد وعقل نير وبحث متواصل ، وحب أصيل لنشر المعرفة بين أبناء العرب عامة ، فأخذ يتناول مجارى المعرفة المتنوعة يضمها صفحات مقتطفه ، مما لا يسعنا إلا أن نقر ونعترف بما له من فضل فهو أحد رائدى النهضة العلمية والطبيعية والرياضية في الشرق كله ، أو هو في طليعتهم ، فكان لعمله هذا المجدى أثر طيب في نهضتنا هذه التي لما تزل آخذة في النمو والتطلع إلى الأمام .

ونحن في عصرنا الحاضر أحوج ما نحتاج إليه هو الانصراف إلى العلوم الرياضية والطبيعية على اختلاف أنواعها ، وإلى التخصص لنكتشف أسرار الطبيعة ، ونعتمد إلى تأسيس المختبرات ، فنخترع ونبدع ، ونظهر ما في أرضنا من كنوز مدفونة ، ما زالت في جوفها تنتظر أبناءها ليميطوا اللثام عنها والإفادة منها ، فالأوطان لا تحيا إلا بإظهار كنوزها المدفونة ، والمستنبطات وهي ما زالت طي الخفاء كثيرة تنتظر العقول النيرة من أبناءها المخلصين للعلم وحده . فالأقوال عندنا كثيرة والتبجمات متوافرة ، والتغنى بأجداد الماضي متخمة ، وكلها لا تغنى بل تفقر ، ولا يؤخذ من قولى هذا أنه يجب أن نتجرد من الماضي ، كلا وإنما أريد أن أتمثل بقول القائل :

ما مضى فات والمثمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

فعلينا أن نفيد من حاضرتنا ونبنى للمستقبل ، وقد شق لنا الطريق أناس مخلصون ، فهل نخاض نحن للحقيقة ، ونعرف أنفسنا ونحررها من آثار ماعلق في الأذهان من مخلفات عصر الانحطاط والاستسلام للقدر ، فنكون عمليين غير اتكاليين ؟

وما قصدت من دراستي هذه « ليعقوب صروف » إلا أن أصرف العقول إلى الطبيعة التي نعيش فيها ، فنبحث أسرارها ونتبين ما فيها ، وليس من العدل في شيء أن نبحث المغيبات ونترك ما نحسه ونلمسه ونطأ عليه ، فالعلوم التي يحتاج إليها الشرق العربي عامة هي الطبيعيات على فروعها والرياضيات^(١) على أنواعها وفن التعدين والهندسة العملية وغيرها من العلوم التي ترينا أسباب الراحة وحفظ الأوطان من الأعداء مجسمة أمام أعيننا .

لقد عبّد لنا « يعقوب صروف » الطريق فلنسر متكئين على جهودنا وإخلاصنا وذكائنا وصبرنا آخذين بأسباب الحضارة مخدّمين وراءنا الماضي سالكين سبل الجديد الحاضر من كل شيء ، عالمين أن أشياء كثيرة في الكون مازالت مجهولة فلا يكشفها غير أبناء الأجيال الآتية ، ومن وضع يده على المحراث لا ياتنث إلى الوراء .

وللدكتور « جميل صليبا » كلام جيد فيما أنا بسيله قال : « لقد اعتمادنا حتى الآن في إحياء ثقافتنا العربية على الجهود الفردية ، أكثر من اعتمادنا على العمل الجماعي . ولكن الجهود الفردية لا تزقي أكلها إلا إذا كانت معرفة الوسائل محددة الغايات . إن هنالك صحفاً ومجلات تظهر وتغيب كالشهب فلا تعيش أكثر مما يعيش زهر الربى ، كما أن هنالك نوادي ثقافية وجمعيات علمية وفنية لا تنتج شيئاً لقلّة وسائلها المادية ، ولا ينجيها مما هي فيه إلا تنظيم جماعي تشرف عليه الدولة في كل قطر عربي ، فعلى كل دولة عربية أن تشجع على البحث العلمي وأن ترعى التقدم الأدبي والفني ، وأن تنشئ قصراً للثقافة أو مركزاً للبحث العلمي ، يتولى تنظيم الجهود الفردية

ويعمل على تقدم العلم وتطوره» ^(١) ، وهذا ما يعوزنا في نهضتنا هذه ، وهذا ما نأمله ونرمي إليه ، إن كنا نريد خير مجتمعا .

ولكى نتبين أهمية العلوم الرياضية وما لها من أثر جليل ، فما علينا إلا أن نتمعن النظر في مقالة « العلوم الرياضية ، منافعها وغرائبها » ^(٢) فتتضح لنا أهميتها ، والسبيل الذى سلكه الآخذون بدرسها فكانت لهم هذه المخترعات الحديثة والاكتشافات القيمة التى نشاهدها بأبصار أعيننا ونلمسها بأيدينا ، ولا مندوحة لنا عنها لإنهاض مجتمعا . فسيلنا إذن ونحن على أبواب مستقبل متفتح أمامنا أن نسلك طريق الأمم الراقية المبدعة ، التى تأتينا فى كل يوم بمخترع جديد يدهش له الفكر ويحار بأمره العقل ، وخير ما يحتاج إليه أبناء الجيل الحاضر ، ليسلموه إلى من بعدهم هو التوجيه الصحيح ، وإفساح المجال للنوايع الذين يتمتعون بقوى عقلية اختراعية واكتشافية ، والنظر الصائب بأمر تشجيعهم على التخصص ، وبمتمنحهم المساعدات التى تهيب بهم إلى مواصلة الدرس والبحث ، وجدير بالشرق عامة أن يركز جهوده على هذه العلوم جملة من كل نواحيها علمياً ونظرياً ، ولا ريب أن أكثر الاختراعات التى منها أعظم المنافع للبشرى ناتجة عن العلوم الرياضية « وكل من سار على الدرب وصل » وهو آخر ما يرجوه المخلصون لوطنهم وأمتهم .

٩ - أقوال الأدباء والمفكرين فيه

قال المرحوم الأستاذ منصور جرداق : أستاذ علم الفلك فى الجامعة الأمريكية :
« اتصف الدكتور صروف منذ صغره بسمو المواهب العقلية ، فقد كانت لديه
دروس الرياضيات الابتدائية والطبيعات كالحساب والجبر والمهندسة والمثلثات

(١) محاضرات الثورة نيسان سنة ١٩٥٧ النشرة الرابعة ص ٣٠٠ .

(٢) 'طلبا فى المختارات .

والكيمياء والفلسفة الطبيعية وعلم الفلك ، بمثابة قراءة القصص التاريخية والفكاهية ومسائلها وقضاياها بمزلة الأوليات ، فلم يكن يجهد نفسه بدرسها وهو طالب "تلميذ" إلا قليلاً لأنها كانت سهلة عليه واضحة وجلية في ذهنه بينما كان غيره من أبناء صفه يتعب كثيراً في درسها ، ويصرف معظم وقته في تحضيرها والاستعداد لها .

(المقتطف المجلد ٧٢ ص ٤١٧)

وقال المؤرخ المرحوم عيسى إسكندر المعاوف :

« لكنه مع كل تفرعات مباحثه وتوسعه في فنون الصحافة التي خصت بها المجالات الكبيرة . ووقوفه على ما يكتبه أرباب المجالات الأجنبية الكبرى ومكاتبها ، قد أبقي لنفسه حصّة وافية من تحليل الألفاظ ونقه اللغة والأوضاع وإرجاع الكلمات إلى نصابها وإصابة الرأي بمعرفة مظانها ، فأبدع في ما أنشأ أو ما اختار من الكتابات والمعارب إلى غير ذلك مما لا محل لتفصيله الآن ، فنترك الحكم فيه لمطالعي المقتطف وكلهم من العلماء الأعلام والأدباء العظام .

(المقتطف ج ١ مجلد ٧٣ ص ١٨٨)

قال المرحوم عباس محمود العقاد :

« حفظ شعراً كثيراً ، كان يضعه أحسن الوضع في أماكن الاستشهاد من مقالاته الوصفية ، ونظم شعراً كأجمل ما نظم العلماء في الحكمة وسرّ الوجود .

(المقتطف المجلد ٧٢ ص ٣٣)

قال المرحوم جبري زويط :

« عرفته في صباي معلماً في برج صافيتا ، وعرفته في فجر شبابي أستاذاً ومعلماً في الكلية الأمريكية في بيروت ، ثم في المقتطف وأخيراً عرفته في مصر في المقتطف أستاذاً ومعلماً ثم دكتوراً معلماً ، فما زلت إذن منذ صيف سنة ١٨٩٦ إلى أن توفاه الله تلميذاً محبباً لهذا الأستاذ الخالد ما خلد علمه وأدبه وفضله .

(المقتطف المجلد ٧٢ ص ٢٨٧)

وقال الأستاذ فهد الجابري :

« الدكتور يعقوب صروف ، أغنى لغتنا المبنية ألفاظاً وتعابير أو أفكاراً وتصانيف لم تكن معهودة في سابق العهد ، وكلّ ذلك بقدر وافٍ لا ينكر » .
(المقتطف المجلد ٧٢ ص ١٥٦)

قال الدكتور شخاشيري :

« المقتطف شيخ المجالات ومن ينكر على هذه المجلة النافعة خدماتها للعلم والشرق واللغة ؟ إنها اشغلت خمسين عاماً جادة مخلصه في عملها وكم هو جميل من أدب مصر أن يحتفل بمجاة العلم والأدب والأخلاق فصر جدية بمثل هذا الاحتفال » .

(المقتطف المجلد ٧٢ ص ١٢)

وقال المرحوم مصطفى صادق الرافعي :

« ثبت شيخنا (يعقوب صروف) على ذلك عمر دولة من الدول في خمسين سنة ونيّف يضرب قلمه في السهل والصعب وفي الممكن والممتنع . وإنه ليرى في كلّ ذلك مرّاً لا يئسني . ويجذو جذواً لا يختلف . كأن الصعب عنده نسق السهل ، والممتنع صوغُ الممكن ، فلو قلت إنه بنى في أصل خلاقه وتركيبه على أن يكون قوة من قوى التحويل لتحقيق المشابهة العقلية بين الشرق والغرب لما أبعدت ، ولو زعمت أن ذلك القلم الحي لم يكن إلا عرقاً في جسم الإنسانية لكان عسى » .
(المقتطف المجلد ٧٢ ص ٢٣)

قال المرحوم الأستاذ إسماعيل مظهر :

« مهما يكن من أمر هذه الصورة التي صورت بها ذلك الجهد الكبير الذي بذله الدكتور العظيم ، فإنني لأعتقد اعتقاداً لا يوهنه الشك بأن المستقبل كفيل بأن تتضاءل هذه الصورة أمام أهله إذا اكتملت في العقول كفاءة

القياس التاريخي وأدركوا أن اسم "صروف" ينزل من تاريخ الشرق منزلة الحركات الفاصلة في تاريخ الفكر الإنساني .

(المقتطف المجلد ٧٢ ص ٤٢٧)

قال المرحوم الدكتور منصور فهمي :

« كان الفقيد عالماً مدققاً مخلصاً للعلم لا ينحرف عن الطرائف العلمية في كتاباته ومباحثه ، لكنه مع ذلك ظل يرمي في وجدانه حرارة الإيمان بالروح وعالمها الآخر . »

(المقتطف المجلد ٧٢ ص ٥٥٩)

قال أسعد لطفي « رئيس نقابة الموظفين » :

« كان من البنائين الأحرار الذين كوتفوا مجدهم على سواعدهم ، هبط أرض مصر ، ومصر مهبط العلوم : فاقتطف لها من ثمار المعارف حديقة غناء هي المقتطف . »

(المقتطف المجلد ٧٢ ص ٥٦١)

وقال المرحوم أحمد شوقي من قصيدة :

ألا في سبيل العلم خمسون حجة

مضت بين تعليم وبين طلاب

قطعت طوالى ليلها ونهارها

بآمال نفس في الكمال رغب

رأى الله أن تلقى إليك صحيفة

فنزحتها عن هوشة وكذاب

• • •

مشينا بنورى علمها وبيانها

فلم نسر إلا في شعاع شهاب

وقال المرحوم الدكتور هيكل :

« إن حياة المغفور له الدكتور صروف تتلخص في مجلة المقتطف ؛ فاقده عاش هذا الرجل صحفياً بمعنى خاص غير المعنى الذي يتبادر إلى الأذهان من كلمة صحفي ، عاش صحفياً متخصصاً لناحية معينة دى نشر العلم وتوطئته على لسان الصحافة » .

(المقتطف المجلد ٧٢ ص ٥٧١)

ومن قصيدة للمرحوم حافظ إبراهيم :

صروف لا تبعد فلسفـة الذى

يطويه طاوى ذلك المضجع

أسكتك الموت ولكنـه

لم يسكت الآثار فى المجمـع

* * *

إلى هنا يحط بنا المطاف بدراسة رجل عرف وعلم وعاش فأفاد ، وترك وراءه أثراً خالداً من مجلدات المقتطف التى تزيد على ثلاثة وسبعين مجلداً ، جمعت من علوم العصر وآدابه ومخترعاته واكتشافاته ما لو تجرد أحد إلى فهرسته لظفر بدائرة علوم تنطق ببذل جهود خمسين سنة ، مضت بين المحابر والأقلام والبحث والتفتيش والتفتيش .